أفكار متقاطعة

تبدّل المفاهيم وتحوّلها في المجتمعات المعاصرة (1)

فوضى إيديولوجيّة و«عولمة» تزيل حدوداً والدولة القوميّة باقية

■ جورج كعدي

الدولة، الديمقراطيّة، اليسار، اليمين، الإيديولوجيا، الاتحاد، الليبراليّة، العولمة، العدالة، المساواة، مجتمع الرفاه... مفاهيم ومصطلحات خضعت في زمننا الراهن وتخضع باستمرار لتحوّلات وتبدّلات، بحيث لم تبق تعني ما كانت تعنيه لعقود منصرمة، بل لقرون. فالقرن الحادي والعشرون يحتاج إلى إعادة تعريف بهذه المفاهيم وتعيينها، بل إلى صوغ مفاهيم جديدة تعيد، مثلاً، تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع، وتجديد الديمقراطيّة الاجتماعيّة، وإسباغ وجه إنسانيّ على الرأسمالية الحديثة التي باتت متوحّشة وتسعى بلا هوادة إلى الربح، ما عمّق سيادة حكم الأقليّة فاحشة الثراء، ووسّع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فتعدّدت أشكال عدم المساواة، وتنامت أعداد المهمّشين، وتفشّى العنف والجريمة، وتفاقمت نسبة البطالة.

تبدو الأفكار السياسيّة اليوم فاقدة القدرة على الإلهام، والسياسيّون يفتقدون روح القيادة. كما تسيطر مشاعر القلق إزاء انهيار المعايير الأخلاقيّة وتنامي الانقسامات والأزمات. فالحياة السياسيّة لا تنجح من غير مُثُل، ولا تكون المُثُل مجدية إن لم تكن ذات صلة بما هو ممكن واقعيّاً، إذ تباينت عميقاً نظم الديمقراطيّة الاجتماعيّة على مستوى التطبيق والممارسة، كذلك نظم «مجتمع الرفاه» التي تتقاسم أصولاً تاريخيّة مشتركة وأهدافاً وبنى متماثلة. لدينا مثلاً، النموذج البريطاني الذي يشدّد على الخدمات الاجتماعية والصحة، ونموذج الدول الاسكندنافيّة التي تغدق الخدمات من كل نوع على المواطنين، أو نموذج الدول الأوروبيّة المتوسطة ذات الالتزامات المحدودة نسبيّاً والمبنيّة على المساهمات في الضمان الاجتماعيّ وضمان الشيخوخة، إلخ.

انتصرت «الليبراليّة الجديدة» جليّاً على المستوى العالميّ، في حين أنّ الديمقراطيّة الاجتماعية تشهد حالة فوضى إيديولوجيّة، وإذا كان ثمّة من يؤمن بالتخطيط، قبل خمسين عاماً، فلا أحد يؤمن به اليوم. لقرن من الزمن اعتبر الإشتراكيّون أنفسهم في طليعة حركة التاريخ ولم تعد هذه النظريّة صالحة اليوم. في حين أنّ المفهوم السياسيّ الجديد، أي «الليبراليّة الجديدة»، يمرّ بدوره في أزمة لارتكازه على مكوّنات ملازمة له مثل العولمة وطغيان الروح الفرديّة في المجتمعات المعاصرة، وفقدان «اليمين» و«اليسار» دلالاتهما الحقيقية، وسوى ذلك من الأزمات والمآزق التي تسم عصرنا الباحث عن مفاهيم جديدة ونظم حكم واجتماع صالحة وبديلة.

إنّ مصطلح «العولمة» المقيت يتردّد على نحو مفرط وفي كلّ مكان، فلا يُحسب أيّ خطاب سياسيّ «كاملاً»، ولا يُقبل أيّ مشروع اقتصاديّ، إلاّ إذا تضمّنا إشارة إلى تلك «العولمة» الحاضرة باستمرار في الأوساط الأكاديميّة وفي أدبيّات الديمقراطيّة الاجتماعيّة، حتى أنّها احتلّت المكانة المركزيّة في معظم المناقشات السياسيّة والاقتصاديّة. وينظر البعض إلى «العولمة» بكونها خرافة ومن ابتداعات «الليبراليّين الجدد»، في حين يرى آخرون أنّها حقيقيّة جداً، وأنّنا نعيش اليوم في عالم بلا حدود أضحت فيه الدولة القوميّة مجرّد «خيال»، وأنّ السياسيّين فقدوا في هذا العالم الجديد «المعولم» كامل سلطتهم الفعليّة. وتُفهم العولمة عادة على نحو اقتصاديّ، علماً أنّ معظم الاقتصاديّات تظلّ إقليميّة، فتجارة دول الاتحاد الأوروبيّ في باقي أنحاء العالم لم تزدد إلاّ بشكل محدود خلال العقود الثلاثة المنصرمة. لم نبلغ بعد الاقتصاد المعولم كليّاً. في حين أن التغيّر الأهمّ يتمثّل في توسيع دور الأسواق الماليّة العالميّة، فثمّة أكثر تريليون دولار (ألف مليار) يحوّل يوميّاً في عمليّات تبادليّة على نطاق عالميّ. تضاعف رأس المال المتقطع (الأموال التي تديرها المؤسسات الماليّة) بمعدّل ألف ومئة في المئة على المستوى العالميّ.

كذلك تتحدّد ثورة الإتصالات وانتشار تكنولوجيا المعلومات عميقاً بحركة العولمة. عالم من الاتصالات الإلكترونيّة الفوريّة تتأثر به حتى المناطق الأشدّ فقراً فتهزّ المؤسّسات المحليّة وأنماط الحياة اليوميّة. تأثير التلفزيون وحده فائق الأهميّة.

لكن هل أضحت الدولة القوميّة حقاً مجرّد «خيال»، على ما يقول المفكّر كينيشي أوهماي ohmae في كتابه «نهاية الدولة الأمّة»؟ وهل أمست الحكومة أمراً بالياً؟

الواقع ليس كذلك، بيد أنّ الشكل يصيبه التغيير، فالعولمة تستقطب بعيداً عن الدولة القوميّة، وتجرف الدول في الوقت عينه نحو الأسفل، إذ تخلق حاجات جديدة واحتمالات انبعاث الهوّيات المحلية، ولدينا مثل حديث في النهوض المفاجئ للقوميّة الاسكتلنديّة التي أجرت استفتاء قبل بضعة أسابيع حول الانفصال عن المملكة المتحدة. ولا يمكن النظر إلى المثل الاسكتلنديّ كمثل معزول لكونه ردّ فعل على التطوّرات البنيويّة ذاتها التي تحصل في أماكن أخرى، كما في الكيبيك وكاتالونيا. تضغط العولمة في جوانب متفرّعة تفضي إلى خلق أقاليم اقتصاديّة وثقافيّة جديدة تتقاطع أحياناً مع حدود الدول القوميّة.

لم يبق مفهوم «السيادة» يحمل معنى «إمّا كل شيء أو لا شيء». أمست الحدود أقلّ تحديداً من ذي قبل، خاصة في إطار الاتحاد الأوروبّي. ومع ذلك، ليست الدولة القوميّة متّجهة نحو الاختفاء، فالأمم تحتفظ وستظلّ تحتفظ في المدى المنظور بقوّة حكوميّة واقتصاديّة وثقافيّة مهمّة، حيال مواطنيها، وفي مواجهة العالم الخارجيّ... (يتبع)

المسرح القوميّ في الحسكة يتحدّى الأزمة ويحارب بالفن

خلف: دور الفنّان خدمة المجتمع وندافع عن وطننا بالكلمة التي توازي الرصاصة

عبدالرحمن السيّد

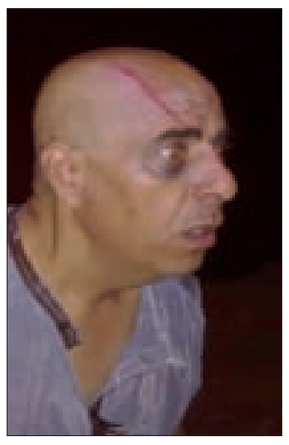

بعد انفراج الحالة الأمنية في مدينة الحسكة، وتوقّف سقوط القذائف عليها من المجموعات المسلحة أثناء تطهير حي غويران الذي كان خارجاً على السيطرة لمدة عامين وشكّل مصدر قلق أمني وعطّل جزءاً كبيراً من الحياة في المدينة، خاصة الحياة الثقافية، يعود الجمهور الى مقاعد المركز الثقافي العربي في الحسكة لحضور العمل الثاني خلال العام الجراي لفرقة المسرح القومي في المدينة، تحت عنوان «ايسوب»، وهي مونودراما عن نص «الثعلب» و«العنب» للكاتب غيليرميه فيجو يريدو ويعتبر من روائع المسرح العالمي. واستمرالعرض أسبوعاً.

يتحدث هذا العمل عن شخصية «إيسوب» القبيح، عبد «أكسانتوس» الذي لا همّ له سوى البحث عن حريته، وشخوص النص قسمان، أغنياء مستبدّون يحقّقون ذواتهم بالمال والجمال، وعبيد فقراء وسمهم فقرهم بالقبح. وتحاول الشخصية المحورية «إيسوب» باستمرار نيل حريتها، لكن في كل مرة يستبعد من جديد الى اللحظة التي ينال فيها حريته عبر وثيقة من «إكسانتوس» فيقدم الوثيقة الى «كلايا» كنوع من الوفاء لشخص شعر نحوه بالعطف وربما بالحب: «إيسوب : كلايا.... خذيها يا كلايا... حرريني أو ابقيني عبداً. إنها أجمل لحظات التضحية...». لكن اللحظة الأسمى هي التي يعود فيها «أكسانتوس» عبداً بعد اتهامه بسرقة كأس من المعبد، فيطلب من «أكناتيوس» البقاء عبداً عنده لنخفض عقابه: «إيسوب: إذن هناك نوعان من العقاب للذين يسرقون، واحد للأحرار وآخر أخف منه للعبيد... حسناً أنا اختار عقاب الأحرار. وداعا يا كلايا... أنا حر... لا أحد سيلمس جسدي بعد الآن، لا سوط الحبشي ولا نظراتك. لا الكراهية ولا الحب.... أنا وحدي سألقي بنفسي في الهاوية».

ظهرت المونودراما مع أول ظهور للمسرح في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، على أيدي كتّاب المسرح اليونانيين أمثال أسخيليوس وسوفوكليس ويوربيدس وغيرهم، كتقليد في شكل الكتابة المسرحية، واستمر هذا التقليد على مر العصور التي تلت مع تبنّي النوذج اليوناني في الكتابة المسرحية. ولا يمكن اعتبار المونولوج داخل عمل مسرحي جماعي متكامل مونودراما قصيرة، إلاّ بما يحويه المونولوغ من عناصر سرد حكاية، أو حكاية عدد من الشخوص أو الحوادث. والمونولوغ في العمل المسرحي الجماعي المتكامل يحمل وظائف مختلفة ومتعددة تشكل جزءاً من الكل، على خلاف ظيفته في المونودراما حيث يشكل كلاً متكاملاً بحد ذاته.

نص «الثعلب والعنب» حوّله المخضرم اسماعيل خلف الى عمل مونودرامي عنوانه «إيسوب» وكان شعاره «كيف نمسرح السرد»، فالمخرج خلف يضعنا منذ اللحظة الأولى في جو أننا سنكون أمام عرف قوامه الأساسي السرد. منذ اللحظة الأولى يدخل «إيسوب» الخشبة متأملاً قطع الديكور كأنه يستحضر حكايته. حيث يجلس على الكرسي مغمضاً عينيه ومتذكراً عبق مكان كلايا، ترافقه أغنية: يحكي «إيسوب» القبيح لكلايا الجميلة حكاية الطاووس الذي سخر من اللقلق والثعلب الذي لم يدرك العنب، وقبل أن ينتهي تقتح كلايا القفص، تضع «إيسوب» داخله وتتأمله، يبتسم «إيسوب» ويغني: كلايا...أنا حر...

يضفي اسماعيل خلف دوماً روحه على أي عرض له، بغض النظر عن أصل العرض، عربياً أو عالمياً. يتمثل النص جيداً ويدرك أبعاده الفكرية والإنسانية ويضع لمسته على كلّ ما يكمن بين السطور في هذا النص، على المستويين التراجيدي والكوميدي. أما إخراجيّاً فنحن أمام مخرج ينحت الحركة على الخشبة ومن الصعب أن نشعر بأن ثمة حركة مجانية أو غير ضرورية، ومن هنا براعته في ملء الخشبة بالحركة رغم أنها لممثل وحيد.

أسلوب العرض أقرب إلى الأسلوب البريشتي فالممثل يخاطب عقل المتفرّج ولا يريده أن ينفعل بالشخصية، فالأهم منها الموقف التراجيدي الذي تجسّده وتجعلنا نتأمله. والحيّز الدرامي هو الأساس في المسرحية، تتخلّله بعض لحظات الروي التي تكسر الحدة العاطفية وأعتقد أنه أمر صحيح. واستطاع المخرج عبر سينوغرافيا العرض إبلاغنا المعنى.

وحمل عبد الغني السلطان كممثل وحيد العرض على كتفيه وتألق في تجسيد «يسوب» الطيب، العبد الرقيق الحكيم. وبالبراعة نفسها تألق لدى انتقاله إلى شخصية «أكساتيوس» المتغطرس والغبي. وموسيقى العرض انسيابية وجميلة، والأغاني التي وضعها بشار الضللي أضفت على العرض جمالاً إضافياً، وهو نفسه الذي صمم اللباس والإضاءة.

المخرج اسماعيل خلف قال لـ «البناء»: «بعد أيام من الضغط النفسي والأمني على المدينة، كان لا بد من أن نقدم شيئاً إلى جمهور الثقافة، فالمسرح هو مرآة الحياة ونتفاعل كفنانين وبشر مع الحوادث، ويجب أن يكون دورنا من خلال الإنتاج الفني لخدمة المجتمع. ندافع عن وطننا بالكلمة التي توازي الرصاصة».

من هم المثقّفون؟

■ رولان رياض مشوح*

بعد كلّ هذا التردّي الثقافي الذي وصلنا إليه، يتبادر إلى الأذهان العديد من التساؤلات، مفادها من هم المثقفون؟ ما رداؤهم، صورهم، أنواعهم؟ إضافة إلى تساؤلات حول دور المثقفين في المجتمع وأثرهم ومفهوم النخبة وغيرها من تلك المسمّيات الدارجة مجتمعياً محلياً ودولياً.

ولعلّه من المفيد المحاولة والبحث عن أصناف هؤلاء المثقفين، للوصول إلى تصوّر بسيط لمن ينطوي دورهم على التقييم والفرز والنقد، لا مجرد الوقوف على القراءة والحفظ.

دائماً ما تأتي صورة المثقف في أذهان الكثيرين على أنه ذاك المتعالي عليهم، الذي ينتظر منهم الصعود إليه في مستوى تفكيره وكلامه، حيث يستخدم مصطلحات معقدة أو غريبة أو مرتفعة المستوى لغوياً، ليعطي لمن حوله إيحاء بأنه مثقف، معتقداً أنه كلما كثر استعمال لقب مثقف على من يملك كمّاً من المعلومات، كلّما تباينت الرؤى والتصرفات التي يمارسها هذا المثقف أو ذاك في المجتمع، وكلّما ظهرت إلى السطح أصناف من هؤلاء المثقفين.

في مسعى للإضاءة على بعض هذه «الأصناف» والتعريف بها من وجهات نظر مختلفة، وحيث يرتدي كلّ صنف صورة مثقف تتناسب وشخصيته الحقيقية تشبهه إلى حدّ ما بصور متعددة نذكر منها (على سبيل المثال لا الحصر)»

المثقف الضرورة: وهو ذاك المثقف الذي يتبدل بتبدل الأحوال، يسير دائماً مع التيار، ويوجه ملكاته كلّها بحسب مصلحته الخاصة.

المثقف النقدي: من ظلّ وفيّاً لوظيفته النقدية من دون أن ينحاز إلى فئة أو حزب، واستمر مصرّاً على ضرورة تغيير الواقع، ومؤمناً بأن حالة الوعي ليست صلبة ومتحجّرة، بل في حالة حراك وترقٍّ دائمين. فكل وعي يولد وعياً جديداً، وكل واقع راهن يولد واقعاً جديداً أفضل.

المثقف الحزبي: عندما ينتسب المثقف إلى حزب سياسي أو اجتماعي، لا يفقد المثقف صدقيته لكنه يفقد استقلالية كلمته وموقفه، وهو مضطر دائماً إلى الاصطفاف مع حزبه في مواقفه وتصريحاته.

المثقف المهاجر: واحد من كثر ممن وجدوا أنفسهم أمام جدار أصم في أوطانهم، وانفتحت لأفكارهم آفاق أوسع في المهجر فحملوا دفاترهم وأقلامهم إلى أماكن أملوا في أنها فضاء واسع، ومصدر حرية لكلماتهم، وساحة رحبة لرسم تصوّراتهم المستقبلية عن مجتمعاتهم وثقافتهم.

المثقف العاجي: هو مثقف ممتلئ بالمعلومات لكنه يعيش في برجه العاجي بعيداً عن مجتمعه وهمومه في بيئة خاصة يرسم بنفسه ويضع لها الحدود والأفق.

المثقف المقاول: هذا المثقف دوره البناء والتنظير الفكري على كل ما يحيط به، مثقف يأتي بأفكاره من الخارج ويعمل على جعلها تتناسب مع البيئة التي يعيش فيها، ويسوّقها ويروّج لها، ويسعى إلى استنساخ عدد من المثقفين مثله حتى يكونوا مرجعية ثقافية كبيرة ومؤثرة تساعد على استمرار هذا النمط من الأفكار والمفكرين.

المثقف الانتحاري: نوع من المثقفين يرفض الواقع الذي يوجد فيه، فيؤثر الانسحاب والتقوقع على الذات، بدلاً من الاستسلام للتأثيرات والضغوط الخارجية والمغريات التي تعرض عليه.

المثقف الشاعري: شاعر بكل ما تحمل الكلمة من معنى، حالم، يحب الأطفال، ويعشق الزهور، مغرم بالشموع، يغرق في عالم الأدب، ينتقل من عالم البارات إلى عالم النقد، ومن تقاليد الشوارع الخلفية إلى صالونات الفكر والشعر.

المثقف القاضي: مثقف كل العصور والدهور، حاكم في كل القضايا، وناقد في كل العلوم والفنون بما في ذلك فنون النقد والكيمياء والطاقة والكواكب والجينات والعقائد والأرحام والطبخ... إلخ. وقد تتحول كل الأمكنة إلى قاعة محكمة (الرصيف، الباص، المحطة، الملهى، الحديقة والشارع).

المثقف الدهّان: يقال عنه في اللغة العامية (مسّاح جوخ)، مدّاح للآخرين، مستعد للتنازل في أية لحظة عن كل قطرات الحياء لأجل الربح والجاه، والشهرة والمركز المرموق، اذا لم يجد سلطة يمدحها، يمدح رئيس التحرير، صاحب الدكان المجاور، الممرضة في المشفى، شرطي المرور، ولا يقدم المديح بدون تبرير فلسفي، نقدي، علمي، عقائدي، وثقافي... إلخ.

لعلّه من المفيد أن تتذكر صديقي المثقف أنّ الثقافة المتداولة في مجتمعاتنا بصورها المختلفة والتي سبق ذكرها لا تعدّ ثقافة، فالثقافة ليست مجرد ألقاب، ولا رتب حتى تقرأ لتزداد رتبتك بين المثقفين، وليست امتيازاً، فهي لن تغنيك وحدك بل ستغني مجتمعاً بأكمله. الثقافة يا صديقي نعمة جليلة من نعم الخالق، ومهمة ثقيلة لا يقوى على حملها إلاّ صادق النية، وكما يقال العلم نور، ونور الله لا يعطيه إلاّ لمن يحبه من عباده.

هنا يدور في ذهني تساؤل مهمّ عن المثقفين، فيا ترى لو مدّ المثقف بصره إلى المستقبل، هل هو مؤمن بأن النصر الأخير سيكون للعقل والفكر والكلمة الصادقة المستقلة الحرة فهذه الأخيرة وحدها ستكون الفاعلة والمؤثرة في ضمير الجماعة والتاريخ.

***محامية**

«فلسطين ستيريو» فيلم لرشيد مشهراوي حول جدليّة البقاء أو الرحيل

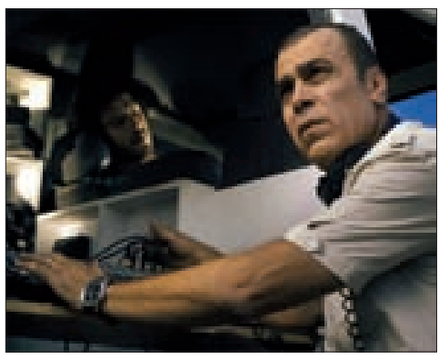

تتمحور قصة فيلم «فلسطين ستيريو» (2013) للمخرج الفلسطيني وابن غزة الجريحة رشيد مشهراوي حول أخوين شابّين قررا الهجرة من فلسطين إلى كندا بعدما قصف طيران الاحتلال بيت الشقيق الأكبر «ميلاد» أو «ستيريو» (محمود أبو چازي) كما يُلقّب في مخيم جنين، فتوفت زوجته ففقد شقيقه الأصغر «سامي» (صلاح حنّون) السمع والقدرة على الكلام. وينتقل «ميلاد» و«سامي» في بداية الفيلم للإقامة الموقتة في منزل شقيقتهما في رام الله، قبل السفر إلى كندا، إلاّ أن مشكلة كبيرة تعترض سفرهما إذ تشترط السفارة توافر مبلغ عشرة آلاف دولار في الحساب المصرفي للمسافرَين. ويقرر الشابّان العثور على عمل جديد للحصول على المبلغ المطلوب، فيشتريان معدّات تقنية ومكبّرات صوت لتأجيرها في الأعراس والتظاهرات والمهرجانات. ويتنقّل بنا الفيلم بين خطّين متوازيين، الأوّل هو الحوارات والمناقشات التي تدور بين «ميلاد» و«سامي» وأقربائهما وأصدقائهما حول فكرة السفر والهجرة، وفيها يُبرزّ الشقيقان فكرة الهجرة رغم معارضة بعض من المحيطين بهما، خاصة «ليلى» (ميساء عبدالهادي) حبيبة «سامي» التي يجعلها المخرج صورة رمزية مكرّرة عن الوطن. إلاّ أنهما يصرّان على متابعة طريقهما والعمل لجمع الأموال المطلوبة. وهنا يتحوّل الفيلم إلى الخط الثاني، مع انتقال «ستيريو» و«سامي» من مكان إلى آخر للعمل، والأمكنة التي يقصدانها تصوّر في مجموعها أشكال الحياة في فلسطين (أو في جزء منها) وكلّ مشهد في هذا الجزء يحمل رمزية معيّنة تعبّر عن أوجاع الفلسطينيين ومشاكلهم وآمالهم ومقاومتهم.

يذهب الشقيقان لتأجير معدّاتهما في تظاهرة ضد جدار الفصل العنصري، وأخرى ضد قيام المستوطنين باقتلاع أشجار الزيتون، ثم ينتقلان بعد ذلك إلى ندوة يخطب فيها أحد الوزراء فنرى كمّ الإنشاء والخطابيّة المقيتة التي أغرق المسؤولون الفلسطينيون القضية فيها، ومن هناك تنتقل الكاميرا لتصوير أحد الأعراس الفلسطينية والإصرار على استمرار الحياة كشكل من أشكال المقاومة.

خلال عملهما في أحد المهرجانات يبحث «ميلاد» عن شريط النشيد الوطني الفلسطيني لبثّه في بداية المهرجان، إلاّ أنّه يجد ضمن حقيبته شرائط لجميع أغاني الحركات والتيارات السياسية الفلسطينية ويُفاجئ بفقدان شريط النشيد الوطني، في إشارة من المخرج إلى ضياع قضية الوطن الأساسية على حساب الصراعات الداخلية بين الحركات الفلسطينية. وهكذا يغرق العمل في الإشارات الرمزية الواضحة في كثير من الأحيان، ولا يبدو الحوار في مشاهد أخرى غنياً بما يكفي لتقديم شيء مختلف أو جديد عمّا دأبت عليه السينما الفلسطينية دوماً في مقاربة خيارَي الرحيل أو البقاء.

نقطة التحوّل بالنسبة إلى «ميلاد» حين يكون جالساً في أحد المشاهد وهو يحسب ما جناه خلال المناسبات ويرى نفسه يردّ المال الذي تقاضاه من مناسبة ذكرى صبرا وشاتيلا، ويشرع في استعادة أسماء مجازر الاحتلال الكثيرة وهو يهمّ بالبكاء. أمّا نقطة التحوّل لدى «سامي» فتحصل لدى قراءته رسالة من ليلى أعطته إيّاها قبل مغادرته مخيم جنين وكان تجنّب قراءتها لفترة طويلة كي لا تؤثر في قراره. وخلال تأجيرهما معدّات الصوت لتظاهرة فلسطينية على أحد الحواجز «الإسرائيلية» يجد «ميلاد» و«سامي» نفسيهما فجأة في قلب التظاهرة إثر شروع جيش الاحتلال في إطلاق الغاز المسيل للدموع فيتخليان عن دورهما كمراقبين للحوادث ويتركان المعدّات عند الحاجز ويهمّان بإنقاذ أحد الجرحى في سيارة العمل. وينتهي الفيلم بعودة الشابّين إلى المنزل حيث يُفاجأ «سامي» بأنّ ليلى كتبت له على الحائط عبارات تصف السفر بالهرب، والبقاء بالمقاومة، وبذلك يقدم المخرج إجابته النهائية عن سؤال البقاء أو الرحيل.

يعالج «فلسطين ستيريو» قضية كبيرة وشائكة ويقدّم صورةً بانورامية عن العيش في فلسطين اليوم.

فضاء حرّ

«ما الذي جلب على شعبي هذا الويل»

■ جورج كرم*

لو عدنا بضع مئات أو حتى بضع آلاف من السنين إلى الوراء لكنّا بألف خير وألف نعمة، أما اليوم فنحن منهمكون في حالة اجتماعية كئيبة عنوانها الطائفية والتكفير والتصرّف الغريزيّ، أكثرها إلحاحاً على الذاكرة، على سبيل المثال، الهجوم على مكاتب قناة «الجزيرة» من قبل جماعة «أوميغا تيم» لنصرة الجيش اللبناني حديثاً، إثر تعليقات الإعلامي في هذه القناة القطرية فيصل القاسم، وهي تعليقات مسيئة إلى الجيش اللبناني على شبكات التواصل الاجتماعي. والهجوم على المحطة هذا ليس سوى تصرّف غريزيّ لا يجدي نفعاً، إذ يحمل في طياته شوفينية نأي بنفس لبنانية ساهمت إلى حد كبير في إنتاج الحالة «الداعشية» في عرسال، فالمذيع المذكور لم يألُ جهداً طوال ثلاثة أعوام ونصف عام من المؤامرة الإرهابية في تأجيج نار الفتنة على أرض الشام وشدّ أزر «داعش» و«ماعش» وغيرهم من موتوري عصرنا هذا وهم يذبحون زهرة جنود صف الجيش السوري وضبّاطه، وبينهم أفضل الطيارين تدريباً وأكثر القادة خبرة في حربنا الاستراتيجية ضد العدو الصهيوني. والجماعات «الداعشية» تلك نمت وتكاثرت وانتشرت وتم تغذيتها بعناصر لبنانية، فيما يساوي لبنان الرسمي وإلى حد كبير الشعبي بين الدولة السورية والجماعات الإرهابية، إرضاءً لأعداء سورية من «أصدقائها»، غاضاً الطرف لفترة طويلة عن ممارسات الجماعات الإرهابية عينها التي هاجمت الجيش البناني وذبحت جنوده في جرود عرسال اليوم. والمثل الذي قدمته آنفاً لعلّه يبرز، رغم تفاهته، بعضاً من روح التفكير «الوطني» اللبناني. والبارحة استعمل وزير خارجية لبنان كلمة «أغراب» للإشارة إلى النازحين السوريين، وقد يكون السبب وراء استعماله التعبير هذا نقصاً في المفردات الخطابية الارتجالية، لكنه يعيد إلى الذاكرة الحرب الأهلية في لبنان التي ذبح فيها الإنعزاليون من عصابات الجميل وشمعون آنذاك الكثير من «الأغراب» باسم لبنان. وهذه الحالة العنصرية في لبنان التي قد تكون نشأت نتيجة تركيبة لبنان مثلما شاءتها فرنسا الاستعمارية آنذاك على قياس الجماعات الطائفية وامتيازاتها، فتطوّرت العصبية بين الجماعات الطائفية على حساب مصلحة الأمة إلى عصبية ضد «الأغراب» أيضاً. واليوم يكاد لا يخلو تصريح لمسؤول لبناني من العنصرية المقزّزة. وحتى عداؤنا لأنظمة الخليج تحوّل اليوم إلى عداء لمواطني الدول الخليجية الذين يعانون هم أيضاً من ظلم العائلات الحاكمة التي نصّبها الاستعمار حكاماً على صحارى البدو القاحلة من كل شي سوى من النفط والغاز. أما بالنسبة إلى حقوق الإنسان الإساسية ومفهوم المساواة بين البشر وعدم التفرقة بينهم بسبب اللون والدين والأصل الإثني، أرانا بلبنانيّتنا وقد حوّلنا مجموع العاملات الأجنبيات في بلادنا بأكمله إلى مستعمرة عبيد ننكّل بهم ونحجز حريتهم مقابل بضعة دولارات شهرية ونعنّفهم ونقتلهم بلا خوف من القانون والعقاب، إلى حدّ أنّ خبراً ورد مرة في الصحيفة في صيف مضى مفاده أن عاملاً من دولة سمراء قتل رب عمله فما كان من عائلة الأخير وأبناء قريته إلاّ أن انتحلوا صفة «الرب» من قريبهم المغدور واقتصوا من العامل وعذّبوه وعلّقوا جثته في إحدى المغاور طعاماً للغربان، وأذكر جيداً كيف أحرقت الصحيفة المحلية الفرنسية اللغة يومذاك فور قراءتي المقال، خوفاً من أن يقرأها أحد أفراد عائلتي القادمين من الخارج فيظنّ أن الزمن عاد فيه إلى العهد الروماني الذي يسود فيه الأسياد على العبيد.

لو عدنا مئات أو آلاف السنين إلى الوراء في بعض الحالات لوجدنا نماذج مشرقة من التطور الإجتماعي في بلادنا والمحيط لا تمت بأي صلة إلى الواقع التعيس الذي نعيشه اليوم، وكانت لحمورابي الملك الأموريّ قبل أربعة آلاف سنة أول مجموعة شرائع تعالج أكثر أمور الحياة تعقيداً، مثل مسؤولية الطبيب الذي يرتكب خطأ في علاج المريض قد تتسبب بوفاته وما ينبغي للطبيب المعالج من عقاب نتيجة إهماله، فيما أكثر الدول تطوراً تخلو اليوم من قانون واضح في هذا الصدد. أين نحن من ريادة حمورابي في التشريع ودولنا تكاد تكون الوحيدة التي تخلو من شرعة لحقوق الإنسان، علماً أنه كان لإمبراطورية إيبلا في تل مردوخ قي الشام عشرون ألف مخطوطة اقتصادية تعنى بشؤون التاريخ والاقتصاد وأحوال العمال الشخصية ومدفوعاتهم منذ خمسة آلاف عام، فأين نحن من ذلك اليوم في دولة غير قادرة على إقرار سلسة رتب ورواتب لموظفين أمضوا معظم سنيّ حياتهم في خدمة الدولة. هذا في الماضي السحيق، أما لو عدنا مئات السنين إلى الوراء لوجدنا أن سفن التجارة العربية غزت العالم من الأندلس إلى الشرق الآسيوي ونشرت العمران واللغة ولا تخلو لغة في العالم من الكلمات العربية، وتزخر الكثير من اللغات الآسيوية بمضمون من المفردات العربية قد يصل عددها إلى الآلاف مثل اللغة الماليزية والإندونيسية والهندي والأردو والأخيرة لغة باكستان مطابقة للهندي تقريباً، وما زالت تكتب بالحرف العربي.

أما اليوم، فإن أشهر ما تعرف به بلادنا هو «داعش»، ولم يمض يوم مذ قررت الإدارة الأميركية وإعلامها إخراج بعبع «داعش» من القفص الإعلامي إلاّ وجّه إليّ شخص في الغرب سؤالاً متوسلاً أن أحدّثه عن «داعش»! كيف لا و«داعش» اليوم بالنسبة إلى العالم أكبر «منتجات» بلادي، والإعلام الغربي يعلف بها المشاهد دزينة مرات يومياً على الأقل. والطريف في الأمر أن الإعلام الغربي أقحم نفسه من دون أن يدري في دوامة محاولة إتقان لفظ أسماء المنظمات الإرهابية التي تتكاثر مثل الأرانب ا تسرح وتذبح وتقطع وتأكل من بلادنا وأبنائها، وسط تغطية إعلامية ممتازة، حتى وصل إلى مجموعة «خراسان» وفصلوا «خرا...» عن «سان». وبعضهم، لسوء حظ دولة قطر، يلفظون الإسم بالإنكليزية «rettug» وتعني قناة المياه الآسنة ورب ضارة نافعة في كلتا الحالتين.

من إيبلا الإمبراطورية التي أنتجت قاموساً بلغتين قبل خمسة آلاف عام وأعطت المرأة حقوقها المميزة، إلى «داعش» التي لا نتنج أكثر من بيانات الإعدام والرجم وتحجّب أثناء البقرة وفقاً لشريعتها، انحدار كبير وتفكّك اجتماعي قد يكون قاتلاً لأمتنا التي لا تستطيع العيش على أمجاد غابرة زالت وحلّ التخلف مكانها. ولا خلاص من هذه الحال إلاّ بالسعي إلى الإجابة عن سؤال: «ما الذي جلب على شعبي هذا الويل» الذي طرحه أنطون سعاده على نفسه مطلع القرن الفائت وأجاب عنه بإطلاق النهضة السورية القومية الإجتماعية.

***كاتب سوري من جبل لبنان موقعه على الإنترنت «com.gkaram.www»**